الطيب الخفاجي

المقري

صاحب نفح الطيب

دراسة تحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين يقدرون ما يبذله الباحث من نفسه في سبيل إظهار الحقيقة الصراح .

وينظرون لثمرة جهده نظرة صادقة . ويؤمنون بأن العملَ الواعي خيرٌ من الإخلاد إلى الدّعة ولو كان في العمل هَنَات ، ويشعرون بأن الثقافة الإسلاميّة في مَسيس الحاجة إلى باحثين مخلصين في أبحاثهم ، أهدي هذا العمل المتواضع .

كلمة شكر وتقدير

إذا كان للمؤلف في الثمرة التي يُنتجها فضلُ الخلق والإبداع، فإن هذه الثمرة لا يُستطاع جنيها وتذوّقها، إذا لم تعمل دور النشر على إبرازها في أجمل مظهر، وتيسّر اقتناءها.

ومن هنا كان للناشرين عمل فعّال في نشر الثقافة وتوفيرها. فهذا المولود الجديد لولا دار الكتب الشرقية لما قُدّر له أن يبصر النور بهذه السرعة والنضارة، ولما استطاع الناس أن يتأملوا فيه، ويبقى المؤلف ضجراً بحمله، ويبقى الناس في حاجة لما يحمل. ولكن شاء الله أن تريح دار الكتب الشرقية المؤلف، وتُمتع القراء الكرام، فنشرت الدراسة. فلصاحبها السيد محمد خوجة الشكر والتقدير، ونتمنى لدار الكتب مزيد التقدم والازدهار.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن دراسة التاريخ قد مسّتها أضواء العلم مسا رفيقا ، وخضعت لتطور الزمن الذي ولّد مفاهيم جديدة للتاريخ ، وطرقا علميّة في البحث عن مد حياة الشعوب وجزرها .

وإذن ، فالتاريخ لم يبق سرد حوادث ، ووصف قصور ، وتعداد جوار ، وخصيان فحسب إلاّ عند من لا يريد أن يتجاوز « المروج » ويلذ له الوقوف عند « العبر » وإنما هو — حسب الفهم الحديث — جَلاء نفسية الشعوب ، والكشف عن ألوان حياتها المختلفة ، حياتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والنفسيّة والثقافية .

وإذ بَلغ فهم الانسان للمنهج التاريخي هذا المدى المتحفّز ، فإن نظرته لتوأم التاريخ « فن التراجم » اعتراها تغيّر ، وأفقدها الاستقرارَ تبدّلٌ هادف ، فلم يعد يقنع بأن تسرد له حياة المترجم له ، وتصب الألفاظ في وصفه صباً ، تفقد معه قيمتها ، فإذا هي هراء ، وإذا أنت تهذي ، وإذا شخصية المترجم له هي هي لا وضوح بعد غموض ، ولا ريّ بعد صدى .

وقلّما كان هذا — ولا سيما زمن تحجر العقول، وتقديس الماضي لذاته — إذا استثنينا أبا الفرج الذي يأبى إلاّ أن يجلو — في توفيق — نفسية الذي يتحدث عنه.

أجل. لم يعد يقنع المثقف في عصرنا بسرد الحياة المعتادة، وإنما يريد منك أن تستعين بهذه الحياة على فهم نفسية المترجم له، وتحليل شخصيته التي لا نستريب في أنها تصور من قريب بيئتها وعصرها.

ومن هنا سها نجم التوفيق في الكتابة عن الشخصيات، حتى عن يد المملاق المتطاول، فكيف بالقزم الأعرج؟

واعلم قارئ — هذه الصفحات — قبل أن ترافقني في هذه الدراسة، أنني لست مؤرخا، وإن كان يلذ لي السمر مع التاريخ، ولست من كتاب التراجم، وإن كانت حبيبة إلى النفس؛ لأن بها تسلي عن كثير مما يلم، وبها تستبين... وإنما ربطتني مع صاحب النفح روابط قديمة، زاد في متانتها رابط جديد، وإيماني بأن «فن التراجم، فن رفيع، كبير الخطر، جليل الشأن. ولعل ترجمة علم من الأعلام يجلوها الصدق، والفن، والبراعة، أفعل في النفوس من رؤية تمثال لذلك العلم مهما كان للتماثيل من أثر حبيب فعّال. فالمعنى البعيد الغور، السحيق القرار الذي تعجز أجلاد الصلب والشَّبَه (١) والرخام عن أن تهز به النفوس، تقوى عليه الحروف السود. ومن ورائها العلم والفن، ومن وراء كل ذلك

---

(١) النحاس الاصفر

روح تخاطب روحا ، وتحملها على أن تختلج بالآيات البينات من البطولة والخلود (١) »

اجتمع كل ذلك ، فإذا أنا أتجه إلى دراسة المَقَّري ، وتتبع أخباره دون غاية واضحة بداءة . ولما اتسع نطاق الدراسة راودتني فكرة نشرها ؛ لأن في ذلك نفعاً وإعانة ، وطال التردد . والبحث في اتصال . وشاء حظ القارئ الكريم أن يشجعني على الطبع رجل خيّر ، تربطه بالمؤلف صلة ودّ وتوجيه ، فإذا بالدراسة تبرز في شهرين ، وتلقى بين يديك أيها القارئ ؛ لتحظى بكل الرضا ، أو لتنال قليلا منه .

سواء ذلك عند كاتبها ما دام أشركك في الأثر ، ورضي أن تَرِدَ ، فلا يستطيع أن يفرض عليك بعد ، أن تقول : هذا عذب فرات ، وإنما يرغب منك أن تضن بالسرعة في قراءتها ، وفي الحكم لها ، أو عليها ، لا لأن معناها معقد ، ولفظها مهجور ، ولا لأن المترجم له فيلسوف أرهقته حدودُ العقل المحض ، وإنما ليكون الحكم أقرب إلى الصواب .

وأنا أشعر أن شخصية المقري تحتاج إلى دراسة أوسع من هذه بكثير . وقد رغب مني حقا عالم فاضل سليم « النفسيّة » أن أتريّث ، لأستطيع الاستيعاب ـ سيما والرجل لم يبحث قبل بحثا متأنيا ـ فهنالك مخطوطات متفرقة في مكتبات عامة وخاصة ، يقتضي العمل العلمي الاطلاع عليها ،

(١) من مقال لعادل الغضبان بمجلة الكتاب عدد افريل س ١٩٤٩

وتوجد دراسات قام بها بعض المغاربة ، قد تعين معرفتها على الدقة والشمول ، وقد سعيت للتمكن من ذلك ، ولكني لم أظفر بالبغية ، ولعلي لا أظفر بها بيسر ، أو بشيء من عسر ؛ لأشياء في نفوس بعض أصحاب المكتبات ، يدركها من ولّهته الكتب النادرة .

فلهذا ، وللحاجة الملحة إلى مثل هذه الدراسة التي تمشي بين الناس على استحياء رأيت نشرها على صورتها هذه ، وأملي أن أوسعها ، إن قُدّر لي أن أعود إلى الرجل مرة أخرى .

وإذا لم تظفر هذه الدراسة بإعطاء صورة جلية مقنعة عن شخصية المقري ، فقد عبّدت السبيل . وحسب المعبد أن يكون رائداً ، ومزيلا ؛ لما يرهق الأقدام .

الحبيب الجنحاني . تونس ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٥٤

توطئة

الحركة الفكرية في المشرق :

مآسي الثقافة الإسلامية أعظم من أن تبقي بذرة فيها حياة ، محققة نماء ، يعقبه إثمار ، لولا أسباب مألوفة في حياة الإنسانية ، وحكمة أرسى عليها هذا الكون .

فهي قد مرّت عليها عواصف هُوج من يوم أن كانت كلا ما محكما يتلى ، وإعمالَ فكر متى لزّت مشكلة حياة ، حياةِ دولة تتسع ، وحياة جِلْف يحدو على قتب بعير ، ولم تزل تمتد وتتسع ، ويدخلها شيء غير هيّن من الترف ، وينزوها كثير من العمق ؛ فتضيف بذلك لبنات في الحضارة الإنسانية ، وتكسب الخلود ؛ لم تزل في هذه النضارة والحيويّة في غفلة من عين السياسة حينا ؛ وفي رعايتها أحايين ، حتى هبّت ريح الصفر ، فتركت مدينة العلم ، وسوق الأدب ـ بغداد ـ خاوياً من العلم والأدب ، وأهلهما ، وهكذا غار المعين ، وقوّض إنسان ما شيّد إنسان ! !

وما أكثر المعاصرين من المؤرخين الذين ينقطع حبلهم هنا ، فيبقى القارئ متطلعا : وقليل أولئك الذين كتبوا عن مرحلة الثقافة الإسلامية بعد نضوب المعين ، وقصد وادي النيل ، حتى استقبال الضيف الثقيل ـ الأتراك ـ أما ما فعله هذا الضيف . وكيف كانت الحركة الفكرية

ـ بالخصوص ـ في أيامه ، فذلك علمه عند دراسات مختصرة . إن صوّرت شيئا عن الحالة السياسية ، فإنها لا تُبين عن الحالة الفكرية والأدبية ، والتاريخ أثبت أن تلك لا تمثّل هذه : لأن الحركة الفكرية ، قد تتجه اتجاهاً معاكساً للحالة السياسية . وسل كتب التاريخ عن القرن الرابع الهجري فستجد الدليل .

وأنا كدارس لشخصية عاشت في القرن الحادي عشر الهجري أرَى لزاما علي ذكرُ ميزات هذا العصر الثقافية ، والإلماعُ لما تقدّمه ، لما في ذلك الربط من إعانة على تصوّر الظلمة بعد أن التمع قبَسٌ ، مدّ في أمل نفوس أظلمها الخطْب ، وأفقدها الوعيَ ما فعله التتار .

كانت بغداد رغم سوء الإدارة ، والنزاع المذهبي قبلةَ العلماء ، وسوق نَفاق الأدب في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، فإذا كان قصر الخليفة غارقا في الترف والفجور ، وتربة خصبة للمكائد والدسائس التي تقوم بها في الغالب إمرأةٌ ، تملك قلب الخليفة ، فتملك أزمّة الدولة . وماذا ينقصها أليست اللاحاظ تفعل ما تعجز عليه السيوف في زوايا كهذه تفوح (١) فجوراً ودساً ضحيته الشعوب ؟

وإذا كانت السنة ، وحب آل البيت يُتخذان ستاراً للوصول إلى الحكم ، فإن مكتبات بغداد ، وأنديةَ العلم والأدب زاخرةٌ بطلاب المعرفة الذين بينهم وبين السياسة شغلُ البحث ولذّة الاطلاع ، ولا سيما إذا كانت

---

(١) بالمعنى المرجوح . تاج العروس ـ ج ٢ ـ ص ٣٠١

السياسة تسوقها أهواء عمياء . إعمالُ السيف في الرقاب أيسر عندها من استمالة قلب جاريـة حسناء .

وذلك الذي كان في دار السلام أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري . حشدٌ من البشر تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى ، وخليفة مترف لا يعلم من أمر الدولة والشعب إلاّ هذه الوجوه الصِّباح ، والأوامر المرتجلة ، وكثيراً ما يمدّه بها السمعُ ، ووزير يريد خلافة العلويين ، فيتعاون مع متوحشين .

من سينقض هذا الخليط من نتائج ما تنطوي عليه النفوس يا ترى ؟

ولكن بلغ السيل الزبى ، فكانت ضربة التتار سنة ٦٥٦ هـ التي أزالت ومحت ، فحققت النتائج بعد أن استحال الإنقاض .

وهكذا انهارت حضارة : وذهبت ثمرة أجيال : واستولى على النفوس القنوط : وأجدبت الحياة .

وقصد المغول بلاد الشام ، وأرض مصر : ليستولي عليها ، ولكنه رجع منهزما هذه المرة : لأنه لم يجد ذلك الحشد ، والخليفة ، والوزير .

وتدبّ حركةٌ في الشام ومصر ، وتقوى ، وإذا بالشام علم وعلماء ، وأدب وأدباء « ولكن إذا ضاع الحظ ، فالكوارث تخلفه آخذاً بعضها برقاب بعض » فالشام التي استعصت على هولاكو لم تستعص على تيمورلنك الذي مثل دور أجداده بالشام ، فخرب ودمر ، وقتل أهل الرأي والمعرفة . ونجت مصر من تخريب تيمورلنك ، فقويت الحركة العلمية فيها ،

وعم النشاط في ظل حكم المماليك الذين لم يكن لهم أدب يتعصبون له ، ولغة يريدون فرضها : وإنما وجدوا أنفسهم في مجتمع إسلامي ذي عادات : وفي قصور ذات تقاليد فاتبعوا . وأدركوا أيضا أنهم إذا أرادوا دوام الحكم ، واستقرار الأمر بأيديهم . فلا بدّ لهم من أن يتحببوا إلى الشعب بمظاهر يودّها . فبنوا المدارس والمساجد . وساروا في هذا الجانب من الحياة سيرة الأيوبيين من الذود عن عقيدة أهل السنة ، ورعاية المتصوفين ، وتوفير العيش لهم .

وحيي العلم والأدب في تلك المدارس والمساجد ، ونشط العلماء في التأليف والإنتاج ، وسجلت ظاهرة تأليف الموسوعات . وكان تشجيع المماليك للعلماء ، وإعانتهم على العيش عاملاً من عوامل الاندفاع في التأليف الذي استحالت به مصر مركزاً عظيما للثقافة الإسلامية إذاك ، وسوقا رائجا للكتب . وهو وإن لم يكن قويا فقد زاد في النشاط (١) ومن يدري لعل العلماء أرادوا بكثرة التأليف تعويض ما خسرته الثقافة الإسلامية في بغداد ، ولكن ما نصيب هذه الثقافة التي كانت لها القاهرة مركز نشاط من التجديد والإبداع ؟

لا نظلم الحقيقة إذا قلنا : إنها اجترار للماضي ، وجمع له ، وشرح ، واختصار . أما الابتكار ، فإنك لا ترى له أثراً إلاّ في القليل النادر ، إن لم يكن معدوماً . فالشرق في هذه الفترة ، فترة المماليك وما بعدها يعيش

(١) راجع الكتب التي ظهرت بفضل تشجيع بعض سلاطين المماليك في كتاب « عصر سلاطين المماليك » ج ٣ - ص ٨١

في عزلة تامة عن الغرب الذي بدأ يؤسس نهضته ، ويبني حضارته التي نعيش في ظلالها اليوم ، ولما التقى به على يد بونابرت ، وجد بينه وبين الخطوات التي قطعها الغرب هوّة سحيقة جعلت منه تابعا إلى الآن .

أما النشاط الأدبي ، فقد كان ضعيفا بالنسبة للنشاط العلمي الديني ، فإذا كان علماء الدين إذاك مكنهم من الحظوة ، ورعاية القصور ، إيمان الميالياك القوي بالإسلام ، واحترام شعور الشعب الديني ، وتنفيذ العلماء لرغائبهم ، فإن الأدباء بينهم ، وبين القصور تجمة أهلها ، وغلظة طباعهم . وأما طبقة الشعب ، فقد شغلتها متاعب العيش ، وألهتها أمور الآخرة شأن عصور التأخر التي يجد أهلها في التبتل تعويضا عن شعورهم بالتقصير في تحمل المسؤولية إزاء الحياة ومشكلاتها .

وأثّرت حالة الشعب هذه ، وموقف السلاطين على الحركة الأدبية ، والبيان العربي ، واستمع لرجل أنفس في ذلك الجوّ الخانق يقول « وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة ، والأخذ منها بالحظ الأوفى : لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك (١) لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ في مخاطبتهم أبكم » القلقشندي .

وكأن حشوة طباع الميالياك ، وبلادة الكاذبين من المتصوفين ، وزمانة أصحاب « المختصرات والحواشي » أثرت جميعا على الأدب . فجاء

(١) الانوك : العيي في كلامه . والجمع نوكى ونوك .

هو أيضا سخيفا سمجا ، غارقا في التقليد الفاضح ، حتى قال صريحهم إن قصد :

وأسرق ما استطعت من المعاني * فإن فقت القديمَ حمِدتُ سيري
وإن ساويت من قبلي فحسبي * مساواة القديم وذا لخيري
وإن كان القديم أتم معنىً * فذلك مبلغي ومطار طيري
فإن الدرهم المضروب باسمي * أحب إليّ من دينار غيري (١)

والذي زاد الأمر ضغثا على إبّالة . هو أن الفن أصيب بفكرة قاتلة ، وهي ظن أهله أن رقيه وازدهاره في كثرة المحسنات اللفظية ، حتى صار الشاعر يَنْظِمُ القصيدة الطويلة ، يتضمن كل بيت منها لونا من ألوان البديع ، وكلف الكتاب بالسجع والاقتباس والتضمين كلفا شديدا ، فلا تجد كاتبا في هذا العصر يسترسل في الكتابة بدون التواء ودوران وما ذلك إلاّ لفقرهم في المعاني . واستمع لمفكر نال الإعجاب ، يشنع بهذه الطريقة التي مسخت البيان العربي ، وحصرته في اللعب بالألفاظ يقول « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر ، وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأمّلته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلاّ في الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه ،

(١) ديوان ابن الوردي ص ٢٢٣ طبع القسطنطينية س ١٣٠٠ هـ

وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ، وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الفضل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ؛ لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب ...

وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل : لبعد أمده في البلاغة ، وانفساح خطوبه ، وولعوا بهذا المسجع ، يلفقون به ما تقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك . وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى أنهم ليعنون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس ، أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس (١) »

وشاع التصوف والزهد في هذا العصر الذي كثر فيه نظم الشعر في الأغراض الدينية ، وفي الخمر ، والتغزل بالمذكر .

والذي يلفت النظر في هذه الظاهرة ، هو أننا نجد كثيراً من الشعراء شُهروا بالعفة والتدين ، ينظمون القصائد الطوال في الخمر ، والغلمان .

---

(١) ص ٥٢٠ من مقدمة ابن خلدون . المطبعة البهية.

وهذا إما أن يكون إغراقا في تقليد القدماء ، فإذا أُفحش بشّار ، وتغزل أبو نواس بالغلمان ، وتغنّي بالخمر ، فلا مندوحة لشعراء عصر المماليك عن ذلك مع فساد الذوق .

وماذا سيقولون إن لم يغرقوا في التقليد ؟

وهل يستطيع حتى الزاهد منهم أن يتخلص من ذلك ؟

فإذا كان الذي يعيش في القاهرة يبكي الأطلال ، ويندب الدِّمَن ، كما ند بها زهير ، وذو الرُّمّة ، فالتغني بالخمر أقل إغراقاً من رجل القاهرة هذا في التقليد . ولقد أشار إلى هذه الاجترار الذي أخرج الشعر عن مهيعه ، وصيّره عقيما يكاد يكون خاليا من المعنى الشعري ، أشار إلى ذلك رجل جبار الفكر ، وناقد أدبي ممتاز حيث قال « . . . فلم يوجد فيهم (أي شعراء المشرق) على طول هذه المدة (منذ مائتي سنة كما قال) من نحا نحو الفحول ، ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مباني الكلام ، وإحكام وضعه ، وانتقاء مواده التي يجب نحته منها ، فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ، ودخلوا في محض التكلّم .

هذا على كثرة المبدعين المتقدمين في الرعيل الأول من قدمائهم ، والحلْبة السابقة زمانا وإحسانا منهم (١) »

---

(١) من نسخة خطية (عندي) من كتاب « المناهج الادبية » لابي الحسن حازم القرطاجني (ستاتى ترجمته باختصار) ولقد حققت هذه النسخة ، وعلقت عليها ، وهي الآن مهيأة للطبع ترتقب ناشرا .

... ما يجعلون سبب تلك الظاهرة ... الـ ...
الغلمان التي انتشرت في طبقات الشعب انتشاراً عظيماً ... لا
سيما في الوسط التركي ؛ لأسباب ليس هنا محل شرحها (١) واستمرت هذه الظاهرة إلى عصر المماليك .

قال أحد شعراء هذا العصر :

يا قوم صار . . . (٢) اليوم مشتهراً   وشائعاً يهتز منه هز إكبار

وبرزت في قوة ظاهرة أخرى، هي ظاهرة الزهد والتصوف التي رعاها المماليك ، ونفروا من الأدب وأهله ؛ لعلة فيهم ، فلم يجد الأدباء بداً ؛ لترويج بضاعتهم من التعرض إلى ما توده طبقة من الشعب ، وافرة المدد . ليس بعيداً إذن أن يكون ابن الوردي صادقا حين قال :

أستغفر الله من شعر تقدم لي
في المرد قصدي به ترويج أشعاري (٣)

ويمكن أن تُفهم هذه الظاهرة فهما آخر . أشعر بقربه للطبيعة الإنسانية ، والتكوين البشري ، وهو أن تكون تلك الظاهرة نتيجة كَبْت غرائز ، وفرار من الحياة الزوجية ؛ لمتاعب العيش ؛ ولما شاع في هذا العصر من تصوّف وزهد ، يمنعان من إجابة الرغائب بالفعل ، فالتجأ الناس

---

(١) إذا كنت حريصاً على معرفة هذه الاسباب ، فارجع لكتاب « الحروب الصليبية ، وأثرها في الادب العربي » لسيد كيلاني .

(٢) حُذفت كلمة لقبحها الثقيل . انظر ديوان ابن الوردي ص ٢٥٦

(٣) الديوان ص ٢٥٦

إلى القول يُسيلون عليه « لعابهم » . وهــا هو ذا ابن الوردي نفسه الذي قال إنه قصد الترويح ، يندفع في وصف المذكر في مقام النهي عن الإثم ، ولكن ما حيلته ، وقد اضطرته غريزة خلقها الله : لتعمل عملها ، فتحقق حكمة (١) . قال ناهيا :

والْــهُ عن آلاة لَهْــو أطــربت * وعن الأمْــر دمُــرْتَبِج الكَفَل
إن تَبَدّى تنكسف شمْسُ الضحى * وإذا مــا مــاس يُزْري بــالأَسَل
زاد إن قِسْنــاه بــالبــدر سنــا * أَو عدلنــاه بغصن فــاعتــدل (٢)

ولم تزل الحركة العلميّة ، وحركة التــأليف في نشاط وتقدم في ظل المماليك ؛ ولم يزل الأدب يتعثّر بثقل البديــع والزخرفة العارية عن الجمال ، حتى فتح العثمانيون مصر ، فعمت الفوضى والاضطراب ، وصــارت اللغة الــرسمية ، هي اللغة الــتركــية ، وقضى الــترك على كــل مــا هــو عربي ،وكــان المنتظــر منهم أن يحــافظوا على مــا وجدوه من الحضــارة الإسلامية ، والتراث العربي ، ومــا ظفروا به في القسطنطينية من آثــار البيزنطيين ، ولكنهم كانوا قوماً لا يعرفون إلاّ السيف ، فعتموا كثيراً ؛ ليخربوا أكثر ، ولم يدركــوا ــ ولعلهم إلى الآن ــ أن السيف لا يكفي

(١) أنبه القارىء أن لهذه الاشارة علاقــة بشخصية المقري ، كما سيتضح ذلك عند الكلام على شعره .

(٢) شرح لامية ابن الوردي للقناوي ص ٢٠ ط مصر س ١٢٧٨ هـ

للدوام . والذي زاد الأمر سوءاً أنهم أخذوا معهم ما وجدوه في مصر والشام بعد فتحها من كنوز العلم والأدب والفن إلى القسطنطينية ، ونقلوا كثيراً من العلماء ، والأدباء ، والمهندسين ، وأرباب الصناعات إلى بلادهم (١) وأراد الفاتح بذلك « أن يعوض دار ملكه ما فقدته من العلماء الروم بسقوط الدولة البيزنطية ممن رحلوا إلى بلاد الإفرنج ، ولا سيما إيطاليا (٢) » .

وهكذا أصبحت الأمصار العربية التي كانت مركز العلم والأدب خاوية منها ، ومن أهلها . ولولا هذه الجوامع المشهورة كالأزهر ، والقرويين ، والأموي ، والزيتونة ، وحلقات كربلاء والنجف التي بقيت تقوم بعملها في دائرة ضيقة ، لدرست العربية وانهارت الثقافة الإسلامية . فلهذه المعاقل الإسلامية فضل المحافظة على تعاليم الإسلام ، ولغة العرب إذاك ، ولو في صورة هزيلة : لأن علماء الدين صاروا في هذا العصر ، يرجحون الغريب السخيف على المعقول الموزون ، وقصروا جهودهم التأليفيّة على الشرح العقيم وتحليل « العبارات » أو الاختصار المشوّه المعبّر عن تحجّر العقول .

والذي يحزّ في النفس أن الانحطاط في هذه الناحية — خاصة — لم يزل كما كان زمن الانحطاط العام .

---

(١) قدرهم ابن إياس بما يربو على ١٨٠٠ شخص . انظر « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ج ٣ ص ١٢٢ طبع بولاق س ١٣١٢ هـ .

(٢) انظر خطط الشام ج ٤ ص ٥٨ طبع دمشق س ١٩٢٥

أمّا الحركة الأدبية زمن العثمانيين . فإنها كانت أشد انحطاطا من الحركة العلمية . فالكتابة الفنية أصبحت تلفيقا « ليس فيه جديد إلاّ التصنع الشديد لألوان . البديع . ومصطلحات العلوم . وقد كانت هذه الأشياء توجد في عصر المماليك فتقبل : لأن الأسلوب كان جزلاً رصينا ، فيستطيع القيام بها . أما في هذا العصر . فالأسلوب واهٍ ضعيف لا يكاد يقوم (١) » .

أما الشعر فقد تضاعفت سماجته عما كانت عليه في عصر المماليك .

وهكذا انتشر الجهل انتشاراً مهولاً (٢) وانطفأت شعلة الفكر ، وأصبح الأدب موالا خالصا . واستمع لرجل كتابته تصلح أن تكون شاهداً على تقهقر الفن ، واحتضاره ، ينعى الأدب فيقول « . . . . إلاّ أن الأدب في هذه الأعصار ، قد هبّت على رياضه ريحٌ ذات إعصار ، حتى أخلقت عرى المحامد ، واسترخى في جريه عنانُ القصائد ، وتقلّصت أذيال الظلال . وخطب البلاء على منابر الأطلال ، وعفا رسمُ الكرام . فعليه مني السلام (٣) » .

وامتد هذا الظلام ، وطال نوم العالم العربي ، حتى حمل نابليون حملته المشهورة على مصر ، فاستيقظ النائم ، وأخذت تدبّ فيه الحياة ، ولمّا

---

(١) ص ٢٠٦ من كتاب « الفن ومذاهبه في النثر العربي » لشوقي ضيف .

(٢) راجع « الحلقة المفقودة في تاريخ العرب » لمحمد جميل بيهم ص ١٩٢ لترى مدى جهل الناس في عصر الاتراك .

(٣) ص ٤ من ريحانة الالبا ، وزهرة الحياة الدنيا ، لشهاب الدين الخفاجي .

تولى مصرَ محمد علي (١٨٠٥) وأراد الاستقلال . قويت الحركة ، واتصل الشرق بالغرب اتصالا ، كان فيه الشرق مستهلكاً إلى اليوم ، والغرب منتجا حاكما . فمتى يتساويان يا ترى إن قُدّر للشرق أن يلحق ؟

هذا تصوير خاطف للحركة الفكرية في عصر المقري ، وما تقدّمه بقليل ، في المشرق موطنه الثاني . فكيف كانت الحركة العلمية والأدبية في المغرب قبل عصر المقري ، وفي عصره ؟

الحركة الفكرية في المغرب :

كان المغرب العربي في العقد الرابع من القرن السابع الهجري تحكمه دول ثلاث قامت على أنقاض دولة الموحدين :

دولة الحفصيين في تونس .

ودولة بني عبد الوادي في الجزائر .

ودولة بني مَرين في المغرب الأقصى .

وازدهرت من هذه الدول الثلاث دولةُ الحفصيين ازدهاراً عظيما في بدايتها ، جعل من البلاد التونسيّة إذاك مجتمعا إسلاميا راقيا ، يعيش في أمن ورفاهية ، بعيداً عن أسباب الانحلال والضعف ، وجعل من المستنصر بالله الحفصي خليفة للمسلمين . وقد بايعه بالخلافة أهل الحجاز سنة ٦٥٧ هـ كما بايعه قبل ذلك بنو مرين ، وبدأت الحضارة الحفصية تتكوّن ، وتنمو ، ودخل حياةَ الناس الترف والنعيم . وفي هذه الفترة هاجر كثير

من الأندلسيين إلى شمال افريقيا ، وقصد أكثر المهاجرين البلاد التونسية ، ولاسيما العلماء والأدباء ، وأرباب الحرف . وأصبح البلاط الحفصي يشجع بكبار أدباء الأندلس ، وعلمائها . مثل ابن الأبّار (١) ، وابن سعيد المغربي (٢) . وحازم القرطاجنّي (٣) (صاحب مدرسة خاصة في النقد الأدبي ، لم تزل مجهولة إلى الآن لدى أدباء العربية المعاصرين) وهكذا ازدهر الأدب والعلم في رعاية الحفصيين بفضل مهاجري الأندلس الذين أكرمهم الحفصيون ، ووفّروا لهم حياة معيشة .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي الاديب الحافظ . ولد س ٥٩٥ هـ وتوفي مقتولا بتونس س ٦٥٨ هـ وله كتب كثيرة تجد أسماءها في مصادر ترجمته .

(٢) هو نور الدين أبو الحسن علي بن الوزير أبي عمران موسى بن سعيد المغربي الغرناطي ينتهي نسبه إلى عمار بن ياسر .

ولد بغرناطة س ٦١٠ هـ ورحل إلى المشرق مرتين . وتوفي بتونس س ٦٨٥ هـ أما ما قاله ابن شاكر ، وابن تغري بردي من أنه توفي س ٦٧٣هـ بدمشق فغير صحيح .

وقد ألف ابن سعيد كتبا كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط . ومن كتبه المخطوطة « القدح المعلى في التاريخ المحلى » منه نسخة بخزينة جامع الزيتونة رقم ٦٣٩ ؛ ومنه شريط سينمائي بالمكتبة العمومية (العطارين) ونسخة بمكتبة باريس ، وفي دار الكتب المصرية قسم التيمورية مصورة (رقم ٢٢١٥ تاريخ) لمختصر من هذا الكتاب صنعه أبو عبد الله محمد بن خليل .

(٣) هو أبو الحسن حازم بن محمد الانصاري القرطاجني . ولد بقرطاجنة الاندلس س ٦٠٨ هـ ورحل إلى تونس حيث توفي بها يوم السبت ٢٤ رمضان س ٦٨٤ هـ . وقد اشتهرت مقصورة حازم التي قالها في المستنصر بالله الحفصي ، وهي أحسن المقصورات التي وصلتنا . وقد طبع شرح الغرناطي على هذه المقصورة س ١٣٤٤ هـ ونشرت المقصورة منفردة في مجلة كلية الآداب بجامعة إبراهيم س ١٩٥٣ محققة بقلم الدكتور مهدي علام . وله كتاب المناهج المتقدم ذكره .

وإذا كانت تونس في هذا العصر مركزاً عظيما لنشاط أدبي وعلمي في ازدياد ، فإن مدينة فاس ، لم تكن في تقهقر وظلام ، بل كانت فيها نهضة أدبية قوية ، ازدهرت في ظلال بني مرين ، وكان للأندلسيين مشاركة فعّالة في بنائها (١) ولم يزل الأدب بالمغرب العربي مزدهراً تغذّيه حياة البذخ ، وينفيخ فيه أهل القصور الذين بينهم وبينه ألفة لا يقل عنها شغف المتعلمين من الشعب ، إلى أن دبّ الضعف في دول المغرب : وأخذت تسعى نحو الانحلال ، فكسدت سوق الأدب ، وضعف التعليم : لكثرة الفتن ، واضطراب الحكم . قال ابن خلدون « فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد ، قد كاد ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها (٢) » .

وفي القرن التاسع الهجري ، بدأ النزاع بين دول المغرب المتداعية للسقوط ، وبين الاسبانيين والبرتغاليين . واستمر هذا النزاع الذي كان يمثل حلقة من حلقات الحروب الصليبية (٣) فاستولى البرتغاليون على مدن مغربية كثيرة ، وخضع لحكمهم الساحل الغربي من بلاد المغرب الأقصى . واحتل الاسبان مدنا جزائرية كثيرة ، وغزا البلاد التونسية .

---

(١) راجع الحركة الادبية في عصر بني مرين في كتاب « النبوغ المغربي في الادب العربي » لعبدالله كنون ج ١ ص ١٥٤ وإن كان هذا الكتاب تنقصه الرصانة في البحث . واستيعاب الموضوعات .

(٢) المقدمة ص ٣٧٦ المطبعة البهية .

(٣) انظر « الحروب الصليبية في المشرق والمغرب » تأليف محمد العروسي المطوي ص ١٩٦ ط تونس ١٩٥٤

وهكذا أصبح شمال افريقيا ميدانَ حرب بين المسيحية والإسلام، وصوّحت الحكم وارث زهرة الأدب والفكر، وحتى حين أطرد العثمانيون الاسبان من البلاد الجزائرية، والبلاد التونسية، فإن الحركة الفكرية، بقيت في انحطاط وتدهور - شأنها في ظل الاتراك - إلى زمن قريب، نهضت فيه بلادنا التونسية نهضة لم يطل أمدها. حتى جاء من عمل على قضائها.

أما المغرب الأقصى، فقد ظهرت فيه أوائل القرن العاشر دولةُ الأشراف السعديين التي أطردت البرتغاليين من المغرب، وقضت على دولة بني وطاس؛ لتقوم على أنقاضها، وتبني نهضة تعيد للمغرب شيئا من سالف أيامه.

حقا إن السعديين بنوا نهضة في المغرب: أرجعت للنفوس اليائسة الأمل، وبعثت فيها الحياة والنشاط، ولا سيما أيام مفخرة هذه الدولة المنصور الذهبي الذي اتسعت رقعة الدولة في أيامه، حتى بلغ نفوذه السودان، وكان يعيش عيشة بذخ وترف، كما كان يعيش خلفاء بني العباس (١) وكان حسنَ السياسة حازما، مشاوراً في الأمور، وقد اتخذ يوم الإربعاء للمشورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة، ويتطارحون الرأي فيما يحدث من مشكلات تخصّ الدولة (٢) وكان واسع الاطلاع، حرّ التفكير، حتى

(١) حمله هذا البذخ، يثقل كاهل الشعب بالضرائب، حتى كانت الرعية تشتكي ذلك منه. الاستقصاء ج ٣ ص ٩٥

(٢) الاستقصاء ج ٣ ص ٩٥

إنه لما انتشر الوباء بالمغرب ، كتب رسالة لولده أبي فارس يأمره بالخروج من مراكش إذا ظهر بها أثر الوباء ، ويأمره أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه ، وإنما يقرأها ابنه « بعد أن تنمس في الخل » وأغضبت هذه الأوامر الناصري ، فقال : إنها منافية للشرع ، وهي من أعمال الإفرنج .

ترى كيف كانت النهضة العلمية والأدبية في عصر السعديين الذين تفيأ ظلالهم أبو العباس أحمد المقري . وتولى في عهدهم مناصب عليا في فاس ؟

توقفت الحركة العلمية أيام الوطاسيين توقفا تاما تقريبا . ولما استتب الأمر للسعديين ، بدأت تتحرك ، ونشط العلماء الذين شجعهم السعديون سيما المنصور الذهبي ، إلاّ أن هذه الحركة لم تعدم العوائق التي عاقتها عن استئناف السير إلى الأمام : لأن علماء ذلك العصر كانوا بالاختصار . والتعمق فيه ، حتى أصبحت العلوم في حالة من الإبهام والجمود ، باعثة على النفرة ، فالعلوم الشرعية كانت منتشرة إذاك انتشاراً عظيما ، وحدث تحول في أشدها انتشاراً ، وهو الفقه فالكتب التي كانت موجودة فيه أيام المرينيين . تُركت وعوّضت بمختصرات تنافس الناس في شرحها ، وانتشر أيضا علم الكلام ، وفن القراآت ، وطغى التصوف الكاذب .

وأما علوم الأدب ، فقد انتشرت أيضا ، لا سيما النحو والبلاغة ، إلاّ أن انتشار هذين العلمين كان عقيما . فالنحو اقتصر طلابه على كتابين ، أو ثلاثة كتب مختصرة : أو حفظ منظومة لا يجاوزونها « أو تجاوز أرواحهم الحناجر » وما أشبه الليلة بالبارحة ، والبلاغة لم يظهر لها أثر إلاّ في الألفاظ ،

والزخرفة الثقيلة ، وازدهر التاريخ ازدهاراً كبيراً في هذا العصر . فقد اجتمع في بلاط المنصور كبار المؤرخين كالمقري ، وابن القاضي ، والفشتالي الذي كان يقول في شأنه « نفتخر به على ملوك الأرض ، ونباري به لسان الدين بن الخطيب (١) » .

فإذا كانت علوم الشريعة ، وعلوم الأدب في هذا العهد الهزال بإيجاز ، فالشعر والنثر الفني أثقلهما البديع ، وأفقدهما الطراوة ، وجودة التصرف في المعاني ، التكلف الفاضح ، والذوق البليد .

وما هي إلا فترة قصيرة تنتهي بموت المنصور الذهبي سنة ١٠١٢ هـ حتى تعم الفوضى ، ويشيع الاضطراب الذي بدأ في حياة المنصور ، فقد حدثنا التاريخ أن ابنه المأمون ثار عليه حين نصح له أن يقلع عن غيّه ؛ لأن ابنه هذا كان « فُسَقاً ، خبيث الطوية ، مولعا بالعبث بالصبيان ، مدمنا للخمر ، سفاكا للدماء ، غير مكترث بأمور الدين (٢) » .

وبلغ الاضطراب في المغرب أوائل القرن الحادي عشر الهجري غايته . ولما قامت الدولة الشريفية ، استمر الاضطراب ، إلا أن الحركة الأدبية لم تضمحل تماما ، بل بقي المغرب الأقصى ، هو القطر العربي الوحيد الذي استمرت فيه الكتابة العربية الصحيحة . وها هو ذا الشيخ محمد بَيْرم التونسي (توفي سنة ١٨٨٩) يقول « ولعمري إن صناعة الإنشاء

(١) انظر ص ١٦٥ من كتاب نزهة الحادي لمحمد الصغير الوفراني ط باريس س ١٨٨٨ م

(٢) الاستقصا ج ٢ ص ٨٦

في الدول باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مرّاكش ، وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكادت كتاباتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي ، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب وهذا ديدنهم من قديم (١) »

ولم تزل الفتن ناشئة الرؤوس ، حتى تولى الحكم مولاي الحسن سنة ١٢٩٠ هـ ، فأعاد بسياسته الرشيدة القبائل النافرة ، إلى الطاعة والإذعان ، وأخذ يقفو خطوات محمد علي في مصر . فأرسل البعثات لأوربا قصد التخرج في فنون العلم والصناعة ، وأسس معملاً كبيراً للسلاح . وأخذ يسعى لنشر التعليم العربي .

وتمر أيام قصيرة ؛ ليجيء الاستعمار الفرنسي ، ويقول على لسان مقيمه العام بالمغرب الأقصى المرشال ليوتي :

١ ـ يجب أن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسية الروح والغاية .

٢ ـ إنه ليست لنا أية فائدة من تدريس اللغة العربية ، ويجب أن تهدف سياستنا إلى إبعاد القبائل العربية عن تعلم أبنائها اللغة العربية التي لن تجني من ورائها خيراً (٢) .

* * *

(١) صفوة الاعتبار ج ١ ص ٦١ ط مصر س ١٣٠٢ هـ .
(٢) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ص ٢٣٠

هذه كلمة إن لم تكن موجزة ، فلم تبلغ حد الإسهاب عن الحركة الفكرية في المشرق والمغرب في عصر المقري . وفي العصر الذي تقدّمه ، والذي يوضّح التعرّضُ له بإيجاز تسلسل الحركات واتصالها ، أو انفصالها .

وقُصد بهذه الكلمة إعطاء صورة بسيطة واضحة عن العصر وروحه : لما بين الأديب ، وبيئته ، وعصره من وشائج قوية ، وتأثّر ، وتأثير .

ترى هل شذّ المقري عن عصره ، أم كان يمثله أحسن تمثيل ؟

ذلك ما سنراه في هذه الدراسة .